مقدمة المؤلف

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار، وبعد:

«الحمد لله الذي خلق الإنسان علمه البيان، وخلق له السمع والبصر والقوى والجوارح والبنان، وشرفه بمعرفته، وأهله لخدمته، وفضله على سائر الحيوان، واختصه بالنهي والأمر، والوزر والأجر، والطاعة والعصيان، ومنحه الحلم والحزم، والفكر والفهم، والذكر والعلم، والتحقق والعرفان، ونحله الرضى والغضب، والتودد والأدب، والتلطف والأرب، والرقة والجشب، والراحة واللغب، والتذكر والنسيان، سبحانه من إله خلق فسوى، وقدر فهدى، وأمات فأحيا، وأعطى ومنع، وخفض ورفع،، وأتم الدين، وأعلن البرهان، حد الحدود، وعم بالفضل الوجود، وبّين الأحكام من مباح وحلال وحرام، ومكروه ومندوب، فاندرج فيها الأدب المطلوب، ففضل هذا الدين على سائر الأديان.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا ضد له ولا ند له، ولا وزير ولا مشير ولا أعوان، بل هو الواحد الأحد، الفرد الصمد، المنزه عن الصحابة والولد، فهو القادر المقتدر الحكيم الديان.

وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، وحبيبه وخليله، وأمينه على وحيه، وشهيده على أمره ونهيه، سيد ولد عدنان، الذي أكمل خلقه، وعظم خلقه، ووضع عنه وزره، ورفع له ذكره، وأدبه فأحسن تأديبه، فكان خلقه القرآن، وأيده بالوحي والتنزيل، والفضل والتفضيل، والبيان والتفصيل، والحكمة والتأويل، والحسن والإحسان.

اللهم صل وسلم وشرف وعظم وبجل وكرم، وضاعف ذلك على هذا النبي الكريم، المنعوت في الكتاب الكريم، بأعظم نعت وأتم تفخيم، بقوله جل ثناؤه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ فيالها من مزية ساد بها على الملائكة والانس والجان، وعلى آله وأصحابه، وأنصاره وحزبه، وأصهاره وأحبابه، المتخلقين بخلقه، والمتأدبين بآدابه في السر والإعلان، الذين بذلوا نفوسهم النفيسة في إظهار دينه القويم، وجاهدوا بسمر القنا وبيض الظبا من حاد عن صراطه المستقيم، ونشروا السنة والكتاب، وأظهروا الفروض والآداب، بأسلم قلب وأفصح لسان، وعلى تابعيهم، والأئمة المجتهدين ومقلديهم، ما نقلت أخبارهم، ودونت آثارهم، وكر الجديدان، وتعاقب الملوان»[1]

قال النبي ﷺ: «**أثقل شيء في الميزان، الخلق الحسن**»[2].

وقال ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلُقًا**»[3].

وقال ﷺ: «**إن أحبكم إليّ وأقربكم مني في الآخرة مجالس أحاسنكم أخلاقًا، وإن**

---

(١) من مقدمة العلامة السفاريني لكتابه غذاء الألباب شرح منظومة الآداب - بتصرف يسير.

(٢) رواه أبو داود (٤٧٧٨ عون) الأدب، والترمذي (٢٠٠٣) البر والصلة، وأحمد (٦/ ٤٤٦/ ٤٤٨) والبخاري في الأدب المفرد (٢٧٠)، وابن حبان (٢/ ٤٨١ الإحسان)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٣) رواه أحمد (٢/ ٢٥٠)، وابن حبان (٢/ ٤٧٩ الإحسان) البر والإحسان وصححه الألباني.

أبغضكم إليّ وأبعدكم مني في الآخرة أسوأكم أخلاقًا، الثرثارون والمتفيهقون، والمتشدقون»[١]. وقال ﷺ: «إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجات قائم الليل صائم النهار»[٢]. وقال ﷺ: «إن الله تعالى جميل يحب الجمال، ويحب معالي الأخلاق، ويكره سفسافها»[٣]. وقال ﷺ: «إن المسلم المسدد ليدرك درجة الصوام القوام بآيات الله بحسن خلقه وكرم ضريبته»[٤]. وقال ﷺ: «إن الناس لم يعطوا شيئًا خيرًا من خُلُق حسن»[٥]. وقال ﷺ: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»[٦]. وقال ﷺ: «خياركم أحاسنكم أخلاقًا، المواطئون أكنافًا، وشراركم الثرثارون المتفيهقون المتشدقون»[٧]. وقال ﷺ: «خير ما أعطى الناس خلق حسن»[٨]. وقال ﷺ: «ليس شيء اثقل في الميزان من الخلق الحسن»[٩].

قال ابن ماسكويه: «الخلق حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية.

وهذه الحال تنقسم إلى قسمين:

---

(١) روه أحمد (٤/ ١٩٣)، وابن حبان (٢/ ٤٨٢ الإحسان)، والبغوي في شرح السنة وصححه العلامة الألباني (٣٣٩٥).

(٢) رواه الحاكم (١/ ٦٠) الإيمان، وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وصححه العلامة الألباني.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط، انظر مجمع البحرين رقم (٢٩٢٦) وصححه العلامة الألباني في الجامع رقم (١٧٣٩).

(٤) رواه أحمد (٢/ ١٧٧) وصححه العلامة الألباني في الصحيحة رقم (٥٢٢).

(٥) رواه الطبراني في الكبير (١/ ١٤٥) وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع رقم (١٩٧٣).

(٦) سبق تخريجه.

(٧) رواه البيهقي في الشعب (رقم ٧٩٨٨) باب حسن الخلق، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٢٥٥).

(٨) رواه الحاكم مطولًا (١/ ١٢١) العلم، وقال صحيح ولم يخرجاه وكذا في (٤/ ١٩٩) الطب. وقال: هذا حديث أسانيده صحيحة كلها على شرط الشيخين ولم يخرجاه والعلة عندهم، فيه أن أسامة بن شريك ليس له غير زياد بن علاقة، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٣١٦).

(٩) رواه أحمد (٦/ ٤٤٦-٤٤٨) وصححه العلامة الألباني في الصحيحة رقم (٨٦٧).

منها ما يكون طبيعيًا: من أصل المزاج، كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو الغضب ويهيج من أقل سبب.

وكالإنسان الذي يجبن من أيسر شيء، كالذي يجبن من أدنى صوت يطرق سمعه، أو يرتاع من خبر يسمعه، وكالذي يضحك ضحكًا مفرطًا من أدنى شيء يعجبه، وكالذي يغتم ويحزن من أيسر شيء يناله.

ومنها ما يكون مستفادًا بالعادة والتدرب، وربما كان مبدؤه بالروية والفكر، ثم يستمر عليه أولًا فأولًا حتى يصير ملكةً وخلقًا[١]

مدح الله ﷻ نبيه ﷺ فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٢]، عن ابن عباس ﷺ قال: لعلى خلق عظيم، دين أحب إليّ ولا أرضى عندي منه، وهو دين الإسلام. فجعل الدين كله خلقًا، فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في الدين.

وقال الحسن ﷺ هو آداب القرآن، وقال ابن القيم: «إنك لعلى الخلق الذي آثرك الله به في القرآن».

وفي الصحيحين أن هشام بن حكيم سأل عائشة ﷺ عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن. فقال لقد هممت أن أقوم ولا أسأل شيئًا[٣].

قال النووي: «معناه العمل به والوقوف عند حدوده والتأدب بآدابه والاعتبار بأمثاله وقصصه وتدبره وحسن تلاوته»[٤].

«ولقد رويت عن عظمة خلقه في السيرة، وعلى لسان أصحابه روايات متنوعة كثيرة، وكان واقع سيرته أعظم شهادة من كل ما روى عنه، ولكن هذه الكلمة أعظم بدلالتها

---

(١) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراف لابن ماسكويه، حققه وشرح غريبه ابن الخطيب (٤١) الطبعة الأولى، المكتبة المصرية.

(٢) سورة القلم: ٤.

(٣) انظر صلاح الأمة في علو الهمة للشيخ سيد حسين العفاني (٥/ ٢٢٥)، والحديث رواه مسلم (٧٤٦) صلاة المسافرين، مطولًا، وأحمد (٦/ ٤٥).

(٤) شرح النووي في صحيح مسلم (٦/ ٣٨، ٣٩).

من كل شيء آخر أعظم بصدورها عن العلي الكبير، وأعظم بتلقي محمد ﷺ لها وهو يعلم من هو العلي الكبير، وبقائه بعدها ثابتًا راسخًا مطمئنًا، لا يتكبر على العباد، ولا ينتفخ، ولا يتعاظم، وهو الذي سمع ما سمع من العلي الكبير»[١].

«وقد تمثلت هذه الأخلاق الإسلامية بكمالها وجمالها وتوازنها واستقامتها وإطرادها وثابتها في محمد ﷺ، وتمثلت في ثناء الله العظيم وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾»[٢].

وقال النبي ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**»[٣]، قال فضل الله الجيلاني: «لا يكون دين من الأديان خاليًا من مكارم الأخلاق، لكن لم تكن الأخلاق الكريمة مجموعة كلها في دين من الأديان السابقة حتى جمع الله في دين الإسلام كل ما كان من أخلاق حسنة، فهذا معنى «**أتمم مكارم الأخلاق**» أي أبلغ نهايتها»[٤].

قال الأستاذ/ محمد محمود الباني ما ملخصه: «الأخلاق هي مجموعة من المعاني والصفات المستقرة في النفس، وعلى ضوئها يحسن الفعل في نظر الإنسان أو يقبح».

وبما أن الرسول ﷺ هو القدوة الحسنة فقد اتصف بالأوصاف الخلقية المحمودة كالعلم والحلم والتواضع والكرم والصدق والوفاء وشدة الحياء وحسن المعاشرة والآداب إلى غير ذلك من الخصال العلية والأخلاق المرضية أخرج الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي أف قط، ولا قال لشيء فعلته؟ لم فعلته ولا لشيء لم أفعله إلا فعلته وكان ﷺ أحسن الناس خلقًا، وما مسست خزًا ولا حريرًا ولا شيئًا كان ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت مسكًا ولا عطرًا

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٦٥٦) ط. دار العلم بجدة.

(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٦٥٨).

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد (١/ ٢٧١)، والحاكم (٢/ ٦٣١) التاريخ، وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وقال العلامة الألباني (٤٥): وهذا إسناد حسن، وابن عجلان إنما أخرج له مسلم مقرونًا بغيره، وله شاهد أخرجه ابن وهب في الجامع؛ فالحديث صحيح.

(٤) فضل الله الصمد شرح الأدب المفرد (١/ ٢٧١).

أطيب من عرق رسول الله ﷺ[١].

قالت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها عندما جاءها في أول بدء الوحي خائفًا: «كلا والله لا يخزيك الله أبدًا: إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على النوائب»[٢].

وعن أنس رضي الله عنه خادم رسول الله ﷺ قال: «**لم يكن رسول الله ﷺ سبابًا، ولا لعانًا، ولا فاحشًا، كان يقول لأحدنا عند المعاتبة: ما له تربت جبينه**»[٣].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادمًا قط ولا امرأة، ولا ضرب بيده شيئًا إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا خير بين شيئين إلا كان أحبهما إليه أيسرهما. وفي رواية: «إلا اختار أيسرهما، إلا أن تكون إثمًا، فإذا كان إثمًا كان أبعد الناس من الإثم، وما انتقم رسول الله - ﷺ، فإذا كان إثمًا كان أبعد الناس من الإثم، وما انتقم رسول الله ﷺ إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله»[٤].

ومن أقوال السلف -رحمهم الله- في حسن الخلق:

قال الحسن: حسن الخلق بسط الوجه، وبذل الندى، وكف الأذى.

وقال أبو عثمان: هو الرضا عن الله تعالى.

وقال سهل التستري: أدناه الاحتمال، وترك المكافأة، والرحمة للظالم. والاستغفار له، والشفقة عليه.

أن لا يتهم الحق في الرزق، ويثق به، ويسكن إلى الوفاء بما ضمن، فيعطيه ولا يعصيه في جميع الأمور فيما بينه وبينه، وفيما بينه وبين الناس.

وقيل: حسن الخلق بذل الجميل، وكف القبيح.

---

(١) رواه البخاري (١٠/ : ٤٧١) الأدب، ومسلم (٢٣٠٩) الفضائل.

(٢) رواه البخاري (١/ ٣٠) بدء الوحي.

(٣) رواه البخاري (١٠/ ٤٦٧) الأدب، وأحمد (٣/ ١٢٦، ١٤٤، ١٥٨).

(٤) رواه مسلم (٢٣٢٧) الفضائل، وأبو داود (٤٧٥٦ عون) الأدب مختصرًا.

وقيل: التخلي عن الرذائل، والتحلي بالفضائل.

وقال يحيي بن معاذ: في سعة الأخلاق كنوز الأرزاق.

وقال رحمه الله: سوء الخلق سيئة لا تنفع معها كثرة الحسنات، وحسن الخلق حسنة لا تضر معها كثرة السيئات.

وقال الجنيد: أربع ترفع العبد على أعلى الدرجات وإن قل علمه وعمله:

الحلم، والتواضع، والسخاء، وحسن الخلق، وهو كمال الإيمان.

وقال الفضيل: لأن يصحبني فاجر حسن الخلق، أحب إلى من أن يصحبني عابد سيء الخلق.

وقال يوسف بن أسباط: علامة حسن الخلق عشر خصال:

١- قلة الخلاف.

٢- وحُسن الإنصاف.

٣- وترك طلب العثرات.

٤- وتحسين ما يبدو من السيئات.

٥- والتماس المعذرة.

٦- واحتمال الأذى.

٧- والرجوع بالملامة على النفس.

٨- والتفرد بمعرفة عيوب نفسه دون غيره.

٩- وطلاقة الوجه للصغير والكبير.

١٠- ولطف الكلام لمن دونه ولمن فوقه.

وذهب الغزالي إلى أن حُسن الخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال الجميلة المحمودة شرعًا وعقلًا بسهولة ويسر، من غير حاجة إلى فكر وروية، فها هنا أربعة أمور:

أحدها: فعل الجميل.

والثاني: القدرة عليه.

والثالث: المعرفة به.

والرابع: هيئة للنفس بها تميل على الحسن ويتيسر عليها.

وليس الخلق عبارة عن الفعل؛ رب شخص خلقه السخاء ولا يبذل، إما لفقد المال، أو لمانع، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل إما لباعث أو لرياء.

وليس هو عبارة عن القدرة لأن نسبة القدرة إلى الإمساك والإعطاء واحد، وكل إنسان خلق بالفطرة قادرًا على الإعطاء، والإمساك.

وليس هو عبارة عن المعرفة، فإن المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعًا على وجه واحد،بل هو عبارة عن المعنى الرابع،فالخلق إذن عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة[1].

ويقول ابن القيم رحمه الله: «وحُسن الخلق يقوم على أربعة أركان، لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر، والعفة، والشجاعة، والعدل.

فالصبر: يحمله على الاحتمال، وكظم الغيظ، وكف الأذى، والحلم والأناة الرفق وعدم الطيش والعجلة.

والعفة: تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل، وتحمله على الحياء وهو رأس كل خير، وتمنعه من الفحشاء والبخل والكذب والغيبة والنميمة.

والشجاعة: تحمله على عزة النفس وإيثار معالي الأخلاق والشيم وعلى البذل والفداء الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقتهن وتحمله على كظم الغيظ والحلم، فإنه بقوة نفسه وشجاعته يمسك عنانها ويكبحها عن الجزع والبطش.

والعدل: يحمله على اعتدال الخلق وتوسطه فيما بين طرق الإفراط والتفريط»[2].

---

(١) نقلًا عن صلاح الأمة (٥/ ٢٤٠).

(٢) باختصار من مدارج السالكين (٣/ ٣٠٨- ٢٣١١).

ومن أمثلة حسن خلق السلف ﷺ:

شتم رجل سلمان الفارسي فقال له: إن خفت موازيني فأنا شر مما تقول، وإن ثقلت موازيني لم يضرني ما تقول.

وشتم رجل الربيع بن خيثم فقال له: يا هذا سمع الله كلامك، وإن دون الجنة عقبة، إن قطعتها لم يضرني ما تقول، وإن لم أقطعها فأنا شر مما تقول.

وقالت له امرأة: يا مرائي. فقال: ما عرفني غيرك.

وقال علي بن يزيد: أغلظ رجل من قريش لعمر بن عبد العزيز القول فأطرق عمر زمانًا طويلًا ثم قال: أردت أن يستفزني الشيطان بعز السلطان فأنال منك اليوم ما تناله مني غدًا.

شتم رجل الأحنف بن قيس فسكت عنه: وأعاد الرجل فسكت عنه وأعاد فسكت عنه. فقال الرجل: والهفاه ما يمنعه من أن يرد على إلا هواني عنده.

وشتمه رجل وجعل يتبعه حتى بلغ حيه. فقال الأحنف: يا هذا إن كان بقي في نفسك شيء فهاته وانصرف. لا يسمعك بعض سفهائنا فتلقى ما تكره.

وقال رجل لمالك بن دينار: بلغني أنك ذكرتني بسوء ؟! قال: أنت أكرم على من نفسي، إني إذا فعلت ذلك أهديت لك حسناتي.

وقال رجل لبعض الحكماء: والله لأسبنك سبًا يدخل معك في قبرك. فقال: معك يدخل لا معي.

وضرب رجل قدم حكيم فأوجعه، فلم يغضب، فقيل له في ذلك فقال: أقمته مقام حجر تعثرت به فذبحت الغضب.

قال محمود الوراق:

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنب ... وإن كثرت منه علي الجرائم

وما الناس إلا واحد من ثلاثة ... شريف ومشروف ومثلي مقاوم

فأما الذي فوقي فأعرف قدره وأتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذي دوني فإن قال صنت عن إجابته عرضي وإن لام ولائم
وأما الذي مثلي فإن زل أو هفا تفضلت إن الفضل بالحلم حاكم

قال رجل لعمر بن عبد العزيز: أشهد أنك من الفاسقين. قال: ليس تقبل شهادتك.

سب رجل ابن عباس ﷺ، فلما فرغ قال: يا عكرمة، هل للرجل حاجة فتقضيها؟ فنكس الرجل رأسه واستحى.

وعن علي بن الحسين بن علي أنه سبه رجل، فرمى إليه بخميصة كانت عليه، وأمر له بألف درهم.

فقال بعضهم: جمع له خمس خصال محمودة: الحلم، وإسقاط الأذى، وتخليص الرجل ما يبعد عن الله، وحمله على الندم والتوبة، ورجوعه إلى المدح بعد الذم اشترى جميع ذلك بشيء من الدنيا يسير.

قال يحيي بن منده: كان عمي سيفًا على أهل البدع، وهو أكبر من أنه يثني عليه مثلي، كان -والله- آمرًا بالمعروف. ناهيًا عن المنكر، كثير الذكر، قاهرًا لنفسه، عظيم الحلم، كثير العلم. قرأت عليه قول شعبة: من كتبت عنه حديثًا فأنا له عبد: فقال عمي: من كتب عني حديثًا فأنا له عبد.

قال خطيب الموصل أبو الفضل: حدثني أبي قال توجهت من الموصل سنة ٤٥٩هـ إلى أبي إسحاق -يعني الشيرازي- فلما حضرت عنده رحب بي وقال: من أين أنت؟ فقلت: من الموصل. قال: مرحبًا، أنت بلدي.

قلت: يا سيدي أنت من فيروز آباد؟ قال: أما جمعتنا سفينة نوح؟

فشاهدت من حسن أخلاقه، ولطائفه، وزهده ما حبب إلى لزومه، فصحبته إلى أن مات.

وقيل إن أبا إسحاق نزع عمامته -وكانت بعشرين دينارًا- وتوضأ في دجلة فجأة لص فأخذها وترك عمامة رديئة بدلها، فطلع الشيخ فلبستها، وما شعر حتى سألوه وهو يدرس. فقال: لعل الذي أخذها محتاج.

قيل للأحنف بن قيس: من أين تعلمت الحلم؟ فقال: من قيس بن عاصم. قيل: وما بلغ حلمه؟ قال: بينما هو جالس في داره إذ أتته جارية بسفود عليه شواء فسقط من يدها فوقع على ابن له صغير فمات، فدهشت الجارية فقال لها: لا روع عليك أنت حرة لوجه الله تعالى.

كان الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ إذا قيل له: إن فلانًا يقع في عرضك يقول: والله لأغيظن من أمره -يعني إبليس- ثم يقول: اللهم إن كان صادقًا فاغفر لي، وإن كاذبًا فاغفر له.

وكان أبو معاوية الأسود يدعو لمن نال منه

وشتم رجل بكر بن عبد الله المزني رَحِمَهُ اللَّهُ فبالغ في شتمه وهو ساكت.

فقيل له: ألا تشتمه كما شتمك فقال: إني لا أعرف له شيئًا من المساوئ حتى أشتمه به ولا يحل لي أن أرميه بالكذب.

وقال رجل مرة لسالم بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ: يا شيخ السوء فقال له سالم: ما أراك أبعدت يا أخي[1].

ويذكر العلامة جمال الدين القاسمي جملة من الأخلاق التي ينبغي أن يتربى عليها أهل الإسلام، قال رَحِمَهُ اللَّهُ ما ملخصه: «كل من أعار الوجود نظره البصير علم أن حاجة المرء على تأديب نفسه، لا تفوقها حاجة، لأن الإنسان إلى الشر أميل منه إلى الخير، وغلى الشهوات النفسية أميل منه إلى الكمالات الروحية، فكان من المحتم العناية بتهذيب خلقه، وتحليه بالمحاسن والفضائل، وتطهير نفسه من المساوئ والرذائل، فيصبح محمود

(١) صلاح الأمة في علو الهمة (٥/ ٢٥٣-٢٧٠)

الأقوال والأفعال، مثالًا للفضيلة والكمال، وهذه شذرة مما يلزمك أن تتخلق به من آداب نفسك: عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به، لا تستخفن بفضائل شريف، لا تميلن إلى سخيف، لا تقولن هجرًا لئلا يسقط قدرك، لا تفعلن نكرًا لئلا يقبح ذكرك، إياك وفضول الكلام فإنه يظهر من عيوبك ما بطن، ويحرك من عدوك ما سكن، فكلام الإنسان بيان فضله، وترجمان عقله، فأقصره على الجميل، واقتصر منه على القليل، وإياك وما يستقبح من الكلام فإنه ينفر عنك الكرام، ويوثب عليك اللئام، إياك واللجاج فإنه يوغر القلوب، وينتج الحروب، فاقتصر من الكلام على ما يثبت حجتك ويبلغك حاجتك، ون قال بلا احترام أجيب بلا احتشام، لا تعود نفسك إلا ما تحظى بأجره وتحمد على ذكره، وإياك ومحاجة من يملكك قهره وينفذ فيك أمره، يستدل على رزانة الرجل بقلة نطقه ومقاله، وعلى فضله بفضل عمله واحتماله فأكرم إخوانك، وأكثر خلانك، وأكفهم لسانك، فطعن اللسان أنفذ من طعن السنان، تعام عما تسوؤك رؤيته، وتغاب عما تضرك معرفته، ولا تشر على م لا يقبل منك، ولا تجب عما لا تسأل عنه، وإذا عاتبت فاستبق، وإذا صنعت معروفًا فاستره، وإذا صنع إليك فانشره، وإذا أذنبت فاعتذر، وإذا أذنب إليك فاغتفر، فالمعذرة بيان العقل، والمغفرة بيان الفضل، لا تزهد في رجل عرف فضله، وجرب عقله، ولا تعن قويًا على ضعيف. وتلا تؤثر دنيا على شرف، ولا تشر بما يعقب الوزر والإثم، ولا تفعل ما يقبح الذكر والاسم.

الق صديقك وعدوك بوجه الرضا من غير مذلة ولا هيبة منهما، وتوقر من غير كبر، وتواضع من غير مذلة، ليكن ضالة عقلك التي ينشدها ونجعته التي يرتاده الحق، فاحكم به ولو على نفسك، ولا تكن ممن تأخذ العزة بالإثم، عليك بالنشاط والعمل، وترك البطالة والكسل، ولا تكن كلًا على غيرك، فإن الرجل كل الرجل الذي يأكل من كسبه، ويشرب من ورده.

أقدم على جلائل الأعمال مع الصبر والثبات، واحمل نفسك على معالي الأمور والتثبت بأحسن الأعمال، والأمور العظام والتهاون لنيلها بالآلام، فإن الكسل من

النقائص التي توجب الخسائس، والشرور.

وقد قيل: إذا رقدت النفس في فراش الكسل استغرقت في بحر الحرمان. ليكن مجلسك هادئًا. وحديثك موزونًا مرتبًا، وإذا جلست فلا تستوفر، وتحفظ من تشبيك أصابعك وفرقعتها، والعبث بشاربك ولحيتك وخاتمك، وتخليل أسنانك، وإدخال إصبعك في أنفك، وكثرة بصاقك وتنحنحك، والتمطي والتثاؤب في وجه الناس وفي الصلاة وغيرها.

أصغ إلى الكلام الحق ممن حدثك من غير إظهار تعجب مفرط، ولا تسأله إعادته، واسكت عن المضاحك والحكايات، لا تحدث عن إعجابك بولدك وشرعك وكلامك وتضيفك وسائر ما يخصك. إذا خاصمت فتوقر وتحفظ من جهلك، وتفكر في جهتك.

لتكن سهل اللقاء والبشاشة ولو في حال المرض، وبادر بالتحية والبشر من تلقاه واكتم بؤسك، واجعل شكواك لمن يقدر على غناك، ولا تحضر منازعة فإنك لا تخلو من قسط من أذاها، ولو بالمطالبة بأداء الشهادة.

إياك والانبساط فإنه عورة من عوراتك، فلا تبذله إلا لمأمون عليه حقيق به، لا تتصنع تصنع المرأة في التزين، ولا تتبذل تبذل العبد، ولا تلح في الحاجات ولا تشجع أحدًا على ظلم، لا تعلم أحدًا من أهلك وولدك فضلًا عن غيرهم مقدار مالك، فإنهم إن رأوه قليلًا هنت عليهم وإن رأوه كثيرًا لم تبلغ رضاهم قط، واجفهم من غير عنف ولن لهم من غير ضعف ليكن لك فضل عزلة؛ فإن كثرة الخلطة مجلبة الابتذال.

ومما يروي عن علي ﷺ: إياك وفعل القبيح فإنه ذكرك ويكثر وزرك، إياك أن تستهل ركوب المعاصي فإنها تكسوك في الدنيا ذلة وتكسبك في الاخرة سخط اللهز عليك بالحكمة فإنها الحلية، عليك بالحياء فإنه عنوان النبل، عليك بالسخاء فإنه ثمرة العقل، عليك بالأناة فإن المتأني حرى بالإصابة عليك بحسن الخلق فإنه يكسبك الكرامة ويكفيك الملامة، عليك بلزوم الحلال، وحسن البر بالعيال، عليك بالصدقة تنج من دناءة الشح، عود نفسك الجميل فإنه يجمل عنك الأحدوثة، ويجزل لك المثوبة، عود نفسك

حسن الكلام تأمن الملام. كن بالوحدة آنس منك بقرناء السوء، كن للمظلوم عونًا، وللظالم خصمًا، كن للود حافظًا وإن لم تجد محافظًا، كن مؤاخذًا نفسك مغالبًا سوء طبعك، وإياك أن تحمل ذنوبك على ربك. كن بأسرارك بخيلًا، ولا تذع سرًا أودعته فإنه الإذاعة خيانة، كن حسن المقال جميل الأفعال، فإن مقال الرجل برهان فضله، وفعاله عنوان عقله، كن صموتًا من غير عي، فإن الصمت زينة العالم وستر الجاهل.

كن بعدوك العاقل أوثق منك بصديقك الجاهل، كن متصفًا بالفضائل مبرأ من الرذائل.

لا تأس على ما فات، لا تقولن ما يسؤوك جوابه، لا تركنن في مودة من لم تكشفه، لا تزهدن من شيء حتى تعرفه، لا تضمن ما لم تقدر على الوفاء به، لا تخبر بما لم تحط علمًا به، لا تأمن البلاء في أمنك ورخائك، لا تعدن شرًا ما أدركت به خيرًا ان لا تعدن خيرًا ما أدركت به شرًا ان لا تتكلم بما لا تعلم فكفى بذلك جهلًا، لا تمسك عن إظهار الحق إذا وجدت له أهلًا، لا تنظر إلى من قال وانظر إلى ما قال:

لا تعود نفسك اليمين فإن الحلاف لا يسلم من الإثم، لا تعود نفسك الغيبة فإن معتادها عظيم الجرم، لا تيأس من الزمان إذا منع، ولا تثق به إذا أعطى، كن على أعظم الحذر، لا يؤنسك إلا الحق، ولا يوحشنك إلا الباطل، لا تخل نفسك من فكرة تزيدك حكمة، وعبرة تفيدك عصمة، لا تسيء الخطاب فيسوءك الجواب، ولا تحارب من لا يعتصم بالدين، فإن مغالب الدين محروب[1]، لا تغالب من لم يستظهر بالحق فإن مغالب الحق مغلوب.

لا تجهل نفسك فإن الجاهل بنفسه جاهل بكل شيء»[2].

(١) أي مهزوم في الحرب.

(٢) جوامع الآداب في أخلاق الأحباب لجمال الدين القاسمي الدمشقي (٦-١٥) باختصار ط. مؤسسة قرطبة.

أما الأدب فقد ذكر ابن حجر رحمه الله تعالى في شرحه لكتاب الأدب في صحيح الإمام البخاري رحمه الله قال: الأدب استعمال ما يحمد قولًا وفعلًا[١].

وعبر بعضهم بأنه: الأخذ بمكارم الأخلاق، وقيل: الوقوف مع المستحسنات، وقيل: هو تعظيم من فوقه والرفق بمن دونه.

والأدب كذلك مما ورد في تعريفه: حسن الأخلاق وفعل المكارم.

والأدب الذي يتأدب به الأديب من الناس سمي أدبًا؛ لأنه يأْدِبُ الناس إلى المحامد ويدعوهم إليها.

وجاء في المصباح عن الأدب: أنه تعلم رياضة النفس ومحاسن الأخلاق، وقيل: الأدب ملكة تعصم من قامت به عما يشينه.

وقال ابن القيم رحمه الله: «الأدب اجتماع خصال الخير في العبد، ومنه المأدبة: الطعام الذي يجتمع عليه الناس».

وكذلك يطلق الأدب في اللغة: على الجمع وسمي الأدب أدبًا لأنه يأدِبُ الناس، يجمعهم إلى المحامد، والأدب: هو الخصال الحميدة.

أما استعمالات هذه الكلمة في كتب أهل العلم فإنها تأتي بمعنى: خصال الخير مثل: آداب الطعام، وآداب الشراب، وآداب النكاح، وآداب القضاء، وآداب الفتيا وآداب المشي، وآداب النوم، ونحو ذلك.

وللعلماء في هذا مصنفات، ويُطلق بعض الفقهاء كلمة آداب على كل ما هو مطلوب سواء كان واجبًا أو مندوبًا ولذلك بوبوا فقالوا: آداب الخلاء والاستنجاء مع أن منها ما هو مستحب وما هو واجب، فكلمة أدب أو آداب أو أن هذا الشئ من الآداب لا يعني أنه فقط مستحب بل ربما يكون واجبًا.

ويطلق الفقهاء أيضًا كلمة «أدب» بمعنى: الزجر والتأديب، كما جاء في حديث:

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٤١٤).

جعل السوط في البيت فإنه أدب لهم[١] - يعني: لأهل البيت.

إذا قيل: أدبه بمعنى عاقبه وزجره وعزره فهذه من معاني كلمة الأدب كذلك.

والأدب أيضًا يطلق على شيء يتعلق باللغة: إصلاح اللسان والخطاب وتحسين الألفاظ والصيانة عن الخطأ والزلل كما صنف ابن قتيبة رحمه الله «أدب الكاتب» إذن كلمة الأدب المستعملة في اللغة هذه لفظة مولدة حدثت في الإسلام، أطلقوا على بعض الأشياء المتعلقة باللسان من الشعر والنثر أدبًا، فهذا إطلاق لغوي يتعلق بإصلاح اللسان والخطابة

وقد ذكر الفقهاء الآداب على أبواب الفقه، فذكروا في كل باب ما يخصه من الآداب، فالاستنجاء مثلًا ذكروا آداب الاستنجاء، غير الأحكام الفقهية مما يجوز ولا يجوز ذكروا أشياء من الآداب، وفي الطهارة كذلك بأقسامها ذكروا آدابًا وفي القضاء ذكروا آداب القضاء في كتب الفقه.

وصنفت كتب خاصة بالأدب مثل: كتاب «أدب الدنيا والدين» للماوردي، ونظم ابن عبد القوي رحمه الله منظومته المشهورة في الأدب والآداب وشرحها السفاريني رحمه الله ومن قبله صنف الإمام ابن مفلح كتاب «الآداب الشرعية».

وهناك كتب تتكلم بشكل مخصوص عن آداب معينة مثل: «**تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم**» لابن جماعة رحمه الله، و«**الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**» للخطيب البغدادي رحمه الله، و«**أدب الإملاء والاستملاء**» للسمعاني، وهو إملاء الحديث وكتابته كيف يملي المحدث الحديث؟ وكيف يكتبه عنه الطلاب؟ وفي آداب الفتيا كتب منها «آداب الفتيا» للسيوطي، وفي آداب البحث والمناظرة مثل كتاب «آداب البحث

---

(١) أخرجه: أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٣٣٢) من حديث ابن عمر مرفوعًا، وأخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠/ ٢٨٤)، و«الأوسط» (٤/ ٣٤١)، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، ولفظه: «علقوا السوط حيث يراه أهل البيت فإنه أدب لهم» وقد أورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٠٦) وحسنه الألباني لشواهده في «الصحيحة» (١٤٤٦)، (١٤٤٧).

والمناظرة» للعلامة محمد الأمين الشنقيطي، هذه كتب خاصة بآداب العلم والتعلم.

كذلك في «آداب الأكل» للإقفاهسي و«آداب الأطفال» للهيتمي، وفي الصحبة كتب مثل كتاب «آداب الصحبة» للسلمي، وفي آداب العشرة كتب مثل كتاب أبي البركات الغزي، وفي التجارة أيضًا، آداب التجارة، وآداب الحوار، وآداب معاملة اليتيم، وآداب الطبيب، وهناك الكثير من الكتب تتكلم في آداب مخصوصة.

أما بالنسبة لأهمية الأدب فقد حث الإسلام المسلم أن يعتني بالآداب في أولاده وذويه ولا يتغافل عنهم ويذكرهم ويأدبهم بآداب الإسلام، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: ٦] قال عليّ ﷺ: «علموهم وأدبوهم». وقال مجاهد رحمه الله: «أوقفوا أنفسكم وأهليكم بتقوى الله وأدبوهم».

ومما جاء في النصوص الشرعية في معاني ما يتعلق بالأدب والتأديب قول النبي ﷺ كما جاء في الحديث الصحيح: «**ثلاثة يُؤتون أجرهم مرتين . . . ورجل كانت له أمة فغذاها فأحسن غذاءها، ثم أدبها فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران**»[1].

وكذلك فقد جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «**كل شئ ليس من ذكر الله فهو لهو ولعب، إلا أن يكون أربعة: ملاعبة الرجل امرأته، وتأديب الرجل فرسه، ومشي الرجل بين الغرضين، وتعليم الرجل السباحة**»[2] وتأديب الرجل فرسه أي: ترويضه وتعليمه.

والأدب كذلك هذه اللفظة جاءت في حديث جابر ﷺ عندما تزوج ثيبًا، وسأله النبي ﷺ فأخبره أنه تزوج بثيب فقال عليه الصلاة والسلام: «**فهلا تزوجت بكرًا**

---

(١) أخرجه: البخاري (٣٠١١)، ومسلم (١٥٤) من حديث أبي موسى الأشعري.

(٢) أخرجه: الطبراني في «الكبير» (١/٨٩/٢)، والنسائي في «كتاب عشرة النساء» رقم (٥٢، ٥٣، ٥٤) من حديث جابر بن عبد الله أو جابر بن عمير، وله شاهد عند الترمذي، وابن ماجه وغيرهما، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣١٥).

تلاعبها وتلاعبك» قال يا رسول الله استشهد والدي ولي أخوات صغار فكرهت أن أتزوج مثلهن فلا تأدبهن، ولا تقوم عليهن فتزوجت ثيبًا لتقوم عليهن وتأدبهن[1].

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦] قال ابن عباس وغيره: «أدبوهم وعلموهم» وهذه اللفظة مؤذنة بالاجتماع، فالأدب: «اجتماع خصال الخير في العبد ومنه المأدبة وهي الطعام الذي يجتمع عليه الناس».

وعلم الأدب: هو علم إصلاح اللسان والخطاب وإصابة مواقعه وتحسين ألفاظه وصيانته عن الخطاء والخلل وهو شعبة من الأدب العام.

«والأدب ثلاثة أنواع: أدب مع الله سبحانه، وأدب مع رسوله وشرعه، وأدب مع خلقه.

فالأدب مع الله ثلاثة أنواع أحدها: صيانة معاملته: أن يشوبها بنقيصة، الثاني: صيانة قلبه أن يلتفت إلى غيره، الثالث: صيانة إرادته أن تتعلق بما يمقتك عليه.

وتأمل أحوال الرسل صلوات الله وسلامه عليهم مع الله وخطابهم وسؤالهم كيف تجدها كلها مشحونة بالأدب قائمة به، قال المسيح عليه السلام: ﴿إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥ﴾ [المائدة: ١١٦] ولم يقل: لم أقله وفرق بين الجوابين في حقيقة الأدب ثم أحال الأمر على علمه سبحانه بالحال وسره فقال: تعلم ما في نفسي ثم برأ نفسه عن علمه بغيب ربه وما يختص به سبحانه فقال: ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾ ثم أثنى على ربه ووصفه بتفرده بعلم الغيوب كلها فقال: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ ثم نفى أن يكون قال لهم غير ما أمره ربه به وهو محض التوحيد فقال: ما قلت لهم إلا ما أمرتني به: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾ [المائدة: ١١٧] ثم أخبر عن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم وأنه بعد وفاته لا اطلاع له عليهم وأن الله ﷻ وحده هو المنفرد بعد الوفاة بالاطلاع عليهم فقال ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [المائدة: ١١٧] ثم وصفه بأن

(١) أخرجه البخاري (٢٣٠٩)، ومسلم (٧١٥) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

شهادته سبحانه فوق كل شهادة وأعم فقال: وأنت على كل شيء شهيد ثم قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨] وهذا من أبلغ الأدب مع الله في مثل هذا المقام أي شأن السيد رحمة عبيده والإحسان إليهم وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيدا لغيرك فإذا عذبتهم مع كونهم عبيدك فلولا أنهم عبيد سوء من أبخس العبيد وأعتاهم على سيدهم وأعصاهم له: لم تعذبهم لأن قربة العبودية تستدعي إحسان السيد إلى عبده ورحمته فلماذا يعذب أرحم الراحمين وأجود الأجودين وأعظم المحسنين إحسانا عبيده لولا فرط عتوهم وإباؤهم عن طاعته وكمال استحقاقهم للعذاب وقد تقدم قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦] أي هم عبادك وأنت أعلم بسرهم وعلانيتهم فإذا عذبتهم: عذبتهم على علم منك بما تعذبهم عليه فهم عبادك وأنت أعلم بما جنوه واكتسبوه فليس في هذا استعطاف لهم كما يظنه الجهال ولا تفويض إلى محض المشيئة والملك المجرد عن الحكمة كما تظنه القدرية وإنما هو إقرار واعتراف وثناء عليه سبحانه بحكمته وعدله وكمال علمه بجاهلهم واستحقاقهم للعذاب ثم قال: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] ولم يقل الغفور الرحيم، وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالى، فإنه قاله في وقت غضب الرب عليهم والأمر بهم إلى النار فليس هو مقام استعطاف ولا شفاعة بل مقام براءة منهم، فلو قال: فإنك أنت الغفور الرحيم، لأشعر باستعطافه ربه على أعدائه الذين قد اشتد غضبه عليهم، فالمقام مقام موافقة للرب في غضبه على من غضب الرب عليهم فعدل عن ذكر الصفتين اللتين يسأل بهما عطفه ورحمته ومغفرته إلى ذكر العزة والحكمة المتضمنتين لكمال القدرة وكمال العلم والمعنى: إن غفرت لهم فمغفرتك تكون عن كمال القدرة والعلم ليست عن عجز عن الانتقام منهم ولا عن خفاء عليك بمقدار جرائمهم، وهذا لأن العبد قد يغفر لغيره لعجزه عن الانتقام منه ولجهله بمقدار إساءته إليه والكمال: هو مغفرة القادر العالم، وهو العزيز الحكيم وكان ذكر هاتين الصفتين في هذا المقام عين الأدب في الخطاب، وفي بعض الآثار: حملة العرش أربعة: اثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك

لك الحمد على حلمك بعد علمك واثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك ولهذا يقترن كل من هاتين الصفتين بالأخرى كقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ وكذلك قول إبراهيم الخليل ﷺ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨-٨٠] ولم يقل وإذا أمرضني حفظا للأدب مع الله وكذلك قول الخضر ﷺ في السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩] ولم يقل فأراد ربك أن أعيبها وقال في الغلامين: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢] وكذلك قول مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجن: ١٠] ولم يقولوا: أراده ربهم ثم قالوا: أم أراد بهم ربهم رشدا وألطف من هذا قول موسى ﷺ: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] ولم يقل أطعمني وقول آدم ﷺ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] ولم يقل: رب قدرت علي وقضيت علي وقول أيوب ﷺ: ﴿مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] ولم يقل فعافني واشفني وقول يوسف لأبيه وإخوته: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ [يوسف: ١٠٠] ولم يقل: أخرجني من الجب حفظا للأدب مع إخوته وتفتيا عليهم: أن لا يخجلهم بما جرى في الجب وقال: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ ولم يقل: رفع عنكم جهد الجوع والحاجة أدبا معهم وأضاف ما جرى إلى السبب ولم يضفه إلى المباشر الذي هو أقرب إليه منه فقال: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ فأعطى الفتوة والكرم والأدب حقه ولهذا لم يكن كمال هذا الخلق إلا للرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ومن هذا أمر النبي ﷺ الرجل: أن يستر عورته وإن كان خاليا لا يراه أحد أدبا مع الله على حسب القرب منه وتعظيمه وإجلاله وشدة الحياء منه ومعرفة وقاره وقال بعضهم: الزم الأدب ظاهرا وباطنا فما أساء أحد الأدب في الظاهر إلا عوقب ظاهرًا وما أساء أحد الأدب باطنا إلا عوقب باطنًا.

وقال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السنن، ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض، ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة.

وقيل: الأدب في العمل علامة قبول العمل وحقيقة الأدب استعمال الخلق الجميل ولهذا كان الأدب: استخراج ما في الطبيعة من الكمال من القوة إلى الفعل فإن الله سبحانه هيأ الإنسان لقبول الكمال بما أعطاه من الأهلية والاستعداد التي جعلها فيه كامنة كالنار في الزناد فألهمه ومكنه وعرفه وأرشده وأرسل إليه رسله وأنزل إليه كتبه لاستخراج تلك القوة التي أهله بها لكماله إلى الفعل قال الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠] فعبر عن خلق النفس بالتسوية والدالة على الاعتدال والتمام ثم أخبر عن قبولها للفجور والتقوى وأن ذلك نالها منه امتحانا واختبارا ثم خص بالفلاح من زكاها فنماها وعلاها ورفعها بآدابه التي أدب بها رسله وأنبياءه وأولياءه وهي التقوى ثم حكم بالشقاء على من دساها فأخفاها وحقرها وصغرها وقمعها بالفجور».

والأدب هو الدين كله؛ فإن ستر العورة من الأدب، والوضوء وغسل الجنابة من الأدب والتطهر من الخبث من الأدب حتى يقف بين يدي الله طاهرًا ولهذا كانوا يستحبون أن يتجمل الرجل في صلاته للوقوف بين يدي ربه وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: أمر الله بقدر زائد على ستر العورة في الصلاة، وهو أخذ الزينة فقال تعالى: ﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١] فعلق الأمر بأخذ الزينة لا بستر العورة إيذانا بأن العبد ينبغي له: أن يلبس أزين ثيابه وأجملها في الصلاة، وكان لبعض السلف حلة بمبلغ عظيم من المال، وكان يلبسها وقت الصلاة ويقول: ربي أحق من تجملت له في صلاتي ومعلوم: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده لا سيما إذا وقف بين يديه فأحسن ما وقف بين يديه بملابسه ونعمته التي ألبسه إياها ظاهرًا وباطنًا، ومن الأدب: نهى النبي ﷺ المصلي: أن يرفع بصره إلى السماء فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: هذا من كمال أدب الصلاة: أن يقف العبد بين يدي

ربه مطرقًا خافضًا طرفه إلى الأرض ولا يرفع بصره إلى فوق قال: والجهمية لما لم يفقهوا هذا الأدب ولا عرفوه ظنوا أن هذا دليل أن الله ليس فوق سمواته على عرشه كما أخبر به عن نفسه واتفقت عليه رسله وجميع أهل السنة قال: وهذا من جهلهم بل هذا دليل لمن عقل عن الرسول على نقيض قولهم إذ من الأدب مع الملوك: أن الواقف بين أيديهم يطرق إلى الأرض ولا يرفع بصره إليهم فما الظن بملك الملوك سبحانه وسمعته يقول في نهيه عن قراءة القرآن في الركوع والسجود: إن القرآن هو أشرف الكلام وهو كلام الله وحالتا الركوع.

والسجود حالتا ذل وانخفاض من العبد فمن الأدب مع كلام الله: أن لا يقرأ في هاتين الحالتين ويكون حال القيام والانتصاب أولى به ومن الأدب مع الله: أن لا يستقبل بيته ولا يستدبره عند قضاء الحاجة كما ثبت عن النبي ﷺ في حديث أبي أيوب وسلمان وأبي هريرة وغيرهم ﷺ والصحيح: أن هذا الأدب: يعم الفضاء والبنيان كما ذكرنا في غير هذا الموضع ومن الأدب مع الله في الوقوف بين يديه في الصلاة: وضع اليمنى على اليسرى حال قيام القراءة ففي الموطأ لمالك عن سهل بن سعد: أنه من السنة و: كان الناس يؤمرون به ولا ريب أنه من أدب الوقوف بين يدي الملوك والعظماء فعظيم العظماء أحق به ومنها: السكون في الصلاة وهو الدوام الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣] قال عبدالله بن المبارك عن ابن لهيعة: حدثني يزيد بن أبي حبيب: أن أبا الخير أخبره قال: سألنا عقبة بن عامر عن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ أهم الذين يصلون دائما قال: لا ولكنه إذا صلى لم يلتفت عن يمينه ولا عن شماله ولا خلفه.

قلت: هما أمران الدوام عليها والمداومة عليها فهذا الدوام والمداومة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤] وفسر الدوام بسكون الأطراف والطمأنينة، وأدبه في استماع القراءة: أن يلقي السمع وهو شهيد وأدبه في الركوع: أن يستوي ويعظم الله تعالى حتى لا يكون في قلبه شيء أعظم منه ويتضاءل ويتصاغر في نفسه حتى

يكون أقل من الهباء والمقصود: أن الأدب مع الله تبارك وتعالى: هو القيام بدينه والتأدب بآدابه ظاهرا وباطنا ولا يستقيم لأحد قط الأدب مع الله إلا بثلاثة أشياء: معرفته بأسمائه وصفاته ومعرفته بدينه وشرعه وما يحب وما يكره ونفس مستعدة قابلة لينة متهيئة لقبول الحق علما وعملا وحالا والله المستعان.

وأما الأدب مع الرسول: فالقرآن مملوء به فرأس الأدب معه: كمال التسليم له والانقياد لأمره وتلقي خبره بالقبول والتصديق دون أن يحمله معارضة خيال باطل يسميه معقولا أو يحمله شبهة أو شكا أو يقدم عليه آراء الرجال وزبالات أذهانهم فيوحده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان كما وحد المرسل ﷻ بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل، فهما توحيدان لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما: توحيد المرسل وتوحيد متابعة الرسول فلا يحاكم إلى غيره ولا يرضى بحكم غيره ولا يقف تنفيذ أمره وتصديق خبره على عرضه على قول شيخه وإمامه وذوي مذهبه وطائفته ومن يعظمه فإن أذنوا له نفذه وقبل خبره وإلا فإن طلب السلامة: أعرض عن أمره وخبره وفوضه إليهم وإلا حرفه عن مواضعه وسمى تحريفه: تأويلا وحملا فقال: نؤوله ونحمله فلأن يلقى العبد ربه بكل ذنب على الإطلاق ما خلا الشرك بالله خير له من أن يلقاه بهذه الحال ولقد خاطبت يوما بعض أكابر هؤلاء فقلت له: سألتك بالله لو قدر أن الرسول حي بين أظهرنا وقد واجهنا بكلامه وبخطابه: أكان فرضا علينا أن نتبعه من غير أن نعرضه على رأي غيره وكلامه ومذهبه أم لا نتبعه حتى نعرض ما سمعناه منه على آراء الناس وعقولهم فقال: بل كان الفرض المبادرة إلى الامتثال من غير التفات إلى سواه فقلت: فما الذي نسخ هذا الفرض عنا وبأي شيء نسخ فوضع إصبعه على فيه وبقي باهتا متحيرا وما نطق بكلمة هذا أدب الخواص معه لا مخالفة أمره والشرك به ورفع الأصوات وإزعاج الأعضاء بالصلاة عليه والتسليم وعزل كلامه عن اليقين وأن يستفاد

منه معرفة الله أو يتلقى منه أحكامه بل المعول في باب معرفة الله: على العقول المنهوكة المتحيرة المتناقضة وفي الأحكام: على تقليد الرجال وآرائها والقرآن والسنة إنما نقرؤهما تبركا لا أنا نتلقى منهما أصول الدين ولا فروعه ومن طلب ذلك ورامه عادياه وسعينا في قطع دابره واستئصال شأفته ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٢-٧٤] والناصح لنفسه العامل على نجاتها: يتدبر هذه الآيات حق تدبرها ويتأملها حق تأملها وينزلها على الواقع: فيرى العجب ولا يظنها اختصت بقوم كانوا فبانوا فالحديث لك واسمعي يا جارة والله المستعان ومن الأدب مع الرسول: أن لا يتقدم بين يديه بأمر ولا نهي ولا إذن ولا تصرف حتى يأمر هو وينهى ويأذن كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١] وهذا باق إلى يوم القيامة ولم ينسخ فالتقدم بين يدي سنته بعد وفاته كالتقدم بين يديه في حياته ولا فرق بينهما عند ذي عقل سليم.

قال مجاهد رحمه الله: لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ وقال أبو عبيدة: تقول العرب: لا تقدم بين يدي الإمام وبين يدي الأب أي لا تعجلوا بالأمر والنهي دونه وقال غيره: لا تأمروا حتى يأمر ولا تنهوا حتى ينهى ومن الأدب معه: أن لا ترفع الأصوات فوق صوته فإنه سبب لحبوط الأعمال فما الظن برفع الآراء ونتائج الأفكار على سنته وما جاء به أترى ذلك موجبا لقبول الأعمال ورفع الصوت فوق صوته موجبا لحبوطها ومن الأدب معه: أن لا يجعل دعاءه كدعاء غيره قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ

بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣] وفيه قولان للمفسرين أحدهما: أنكم لا تدعونه باسمه كما يدعو بعضكم بعضا بل قولوا: يا رسول الله ﷺ يا نبي الله فعلى هذا: المصدر مضاف إلى المفعول أي دعاءكم الرسول الثاني: أن المعنى لا تجعلوا دعاءه لكم بمنزلة دعاء بعضكم بعضا إن شاء أجاب وإن شاء ترك بل إذا دعاكم لم يكن لكم بد من أجابته ولم يسعكم التخلف عنها ألبتة فعلى هذا: المصدر مضاف إلى الفاعل أي دعاؤه إياكم

ومن الأدب معه: أنهم إذا كانوا معه على أمر جامع من خطبة أو جهاد أو رباط لم يذهب أحد منهم مذهبا في حاجته حتى يستأذنه كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ [النور: ٦٢] فإذا كان هذا مذهبا مقيدا بحاجة عارضة لم يوسع لهم فيه إلا بإذنه فكيف بمذهب مطلق في تفاصيل الدين: أصوله وفروعه دقيقه وجليله هل يشرع الذهاب إليه بدون استئذانه ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] [الأنبياء: ٧] ومن الأدب معه: أن لا يستشكل قوله بل تستشكل الآراء لقوله ولا يعارض نصه بقياس بل تهدر الأقيسة وتلقى لنصوصه ولا يحرف كلامه عن حقيقته لخيال يسميه أصحابه معقولا نعم هو مجهول وعن الصواب معزول ولا يوقف قبول ما جاء به على موافقة أحد فكل هذا من قلة الأدب معه وهو عين الجرأة.

وأما الأدب مع الخلق: فهو معاملتهم على اختلاف مراتبهم بما يليق بهم فلكل مرتبة أدب والمراتب فيها أدب خاص فمع الوالدين: أدب خاص وللأب منهما: أدب هو أخص به ومع العالم: أدب آخر ومع السلطان أدب يليق به وله مع الأقران أدب يليق بهم ومع الأجانب أدب غير أدبه مع أصحابه وذوي أنسه ومع الضيف أدب غير أدبه مع أهل بيته ولكل حال أدب: فللأكل آداب وللشرب آداب وللركوب والدخول والخروج

والسفر والإقامة والنوم آداب وللبول آداب وللكلام آداب وللسكوت وللإستماع آداب.

وأدب المرء: عنوان سعادته وفلاحه وقلة أدبه: عنوان شقاوته وبواره فما استجلب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب ولا استجلب حرمانها بمثل قلة الأدب فانظر إلى الأدب مع الوالدين: كيف نجى صاحبه من حبس الغار حين أطبقت عليهم الصخرة والإخلال به مع الأم تأويلًا وإقبالًا على الصلاة كيف امتحن صاحبه بهدم صومعته وضرب الناس له ورميه بالفاحشة.

وتأمل أحوال كل شقي ومغتر ومدبر: كيف تجد قلة الأدب هي التي ساقته إلى الحرمان.

وانظر أدب الصديق ﷺ مع النبي ﷺ في الصلاة: أن يتقدم بين يديه فقال: ما كان ينبغي لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدي رسول الله ﷺ كيف أورثه مقامه والإمامة بالأمة بعده فكان ذلك التأخر إلى خلفه وقد أومأ إليه أن: اثبت مكانك جزا وسعيا إلى قدام بكل خطوة إلى وراء مراحل إلى قدام تنقطع فيها أعناق المطي والله أعلم فصل قال صاحب المنازل الأدب: حفظ الحد بين الغلو والجفاء بمعرفة ضرر العدوان هذا من أحسن الحدود فإن الانحراف إلى أحد طرفي الغلو والجفاء: هو قلة الأدب والأدب: الوقوف في الوسط بين الطرفين فلا يقصر بحدود الشرع عن تمامها ولا يتجاوز بها ما جعلت حدودا له فكلاهما عدوان والله لا يحب المعتدين والعدوان: هو سوء الأدب وقال بعض السلف: دين الله بين الغالي فيه والجافي عنه فإضاعة الأدب بالجفاء: كمن لم يكمل أعضاء الوضوء ولم يوف الصلاة آدابها التي سنها رسول الله ﷺ وفعلها وهي قريب من مائة أدب: ما بين واجب ومستحب وإضاعته بالغلو: كالوسوسة في عقد النية ورفع الصوت بها والجهر بالأذكار والدعوات التي شرعت سرا وتطويل ما السنة تخفيفه وحذفه كالتشهد الأول والسلام الذي حذفه سنة وزيادة التطويل على ما فعله رسول الله ﷺ لا على ما يظنه سراق الصلاة والنقارون لها ويشتهونه فإن النبي ﷺ لم يكن ليأمر بأمر

ويخالفه وقد صانه الله من ذلك وكان يأمرهم بالتخفيف ويؤمهم بالصافات ويأمرهم بالتخفيف وتقام صلاة الظهر فيذهب الذاهب إلى البقيع فيقضي حاجته ويأتي أهله ويتوضأ ويدرك رسول الله ﷺ في الركعة الأولى فهذا هو التخفيف الذي أمر به لا نقر الصلاة وسرقها فإن ذلك اختصار بل اقتصار على ما يقع عليه الاسم ويسمى به مصليا وهو كأكل المضطر في المخمصة ما يسد به رمقه: فليته شبع على القول الآخر وهو كجائع قدم إليه طعام لذيذ جدًّا فأكل منه لقمة أو لقمتين فماذا يغنيان عنه ولكن لو أحس بجوعه لما قام من الطعام حتى يشبع منه وهو يقدر على ذلك لكن القلب شبعان من شيء آخر ومثال هذا التوسط في حق الأنبياء عليهم السلام: أن لا يغلو فيهم كما غلت النصارى في المسيح ولا يجفو عنهم كما جفت اليهود فالنصاري عبدوهم واليهود قتلوهم وكذبوهم والأمة الوسط: آمنوا بهم وعزروهم ونصروهم واتبعوا ما جاءوا به ومثال ذلك في حقوق الخلق: أن لا يفرط في القيام بحقوقهم ولا يستغرق فيها بحيث يشتغل بها عن حقوق الله أو عن تكميلها أو عن مصلحة دينه وقلبه وأن لا يجفو عنها حتى يعطلها بالكلية فإن الطرفين من العدوان الضار وعلى هذا الحد فحقيقة الأدب: هي العدل والله أعلم»[1].

أما التزكية، فقد بعث الله ﷻ الرسل عليهم الصلاة والسلام مبشرين ومنذرين، ليذكّروا بآيات الله وليعلّموا الناس وليزكّوا الأنفس، فالتعليم والتذكير والتزكية هي أهم مهمات الرسل، انظر مصداق ذلك في دعوة إبراهيم لذريته: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

(١) ما تقدم من كلام على أنواع الأدب منقول من مدارج السالكين لابن القيم رحمه الله.

وانظر الاستجابة لهذه الدعوة والمنّة على هذه الأمة في قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

ولقد قال موسى لفرعون: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٨-١٩].

وقال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل: ١٧-١٨].

وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠].

فتزكية النفس من مهمات الرسل، وهي هدف للمتقين، وعليها مدار النجاة عند الله ﷻ.

والتزكية في اللغة تأتي على معان: منها التطهير، ومنها النمو وهي كذلك في الاصطلاح، فزكاة النفس تطهيرها من أمراض وآفات، وتحققها بمقامات، وتخلقها بأسماء وصفات.

فالتزكية في النهاية: تطهرٌ وتحقق وتخلق، ولذلك وسائله المشروعة، وماهيتها وثمراتها الشرعية، ويظهر آثار ذلك على السلوك، في التعامل مع الله ﷻ ومع الخلق، وفي ضبط الجوارح وفقًا لأوامر الله.

إن تزكية القلوب والنفوس: إنما تكون بالعبادات فإذا أُدِّيت العبادة على كمال وتمام فعندئذ يتحقق القلب بمعان تكون النفس بها مزكاة، ويكون لذلك آثاره وثمراته على الجوارح كلها كاللسان والعين والأذن وبقية الأعضاء، وأظهر ثمرات النفس المزكاة حسن الأدب والمعاملة مع الله والناس: مع الله قيامًا بحقوقه بما في ذلك بذل النفس جهادًا في سبيله، ومع الناس على حسب الدائرة وعلى مقتضى المقام وعلى ضوء التكليف الرباني.

فالتزكية لها وسائل مثل: الصلاة، والإنفاق، والصوم، والحج، والذكر، والفكر وتلاوة القرآن، والتأمل، والمحاسبة، وتذكر الموت، إذا أُديت هذه على كمالها وتمامها.

ومن آثار ذلك أن يتحقق القلب بالتوحيد، والإخلاص، والصبر، والشكر، والخوف، والرجاء، والحلم، والصدق مع الله، والمحبة له، ويتخلى عما يقابل ذلك من رياء، وعجب، وغرور، وغضب للنفس، أو للشيطان، وبذلك تصبح النفس مزكاة فتظهر ثمرات ذلك في ضبط الجوارح على أمر الله في العلاقة مع الأسرة والجوار والمجتمع والناس.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥].

وبين يديك أيها القارئ الكريم سفرٌ جليل، حوى آدابًا وأخلاقًا وفضائل، تزكي النفوس، وتطهر القلوب، بحول وقوة علام الغيوب، لمن كان راغبًا في النجاة في الآخرة والسعادة في الدنيا.

وقد حرصت على أن أورد فيه ما صح من الأحاديث النبوية في كل باب، مع نقل كلام أهل العلم عليها، حرصت كذلك على أن يخلوا الكتاب من ألفاظ وعبارات الطرقية، وأصحاب الشطحات، سوى ما قد يفوت سهوًا، وعذري فيما يفوت تأثر كثير من كتب الأخلاق والآداب والرقائق بتلك العبارات وقد اعتمدت في هذا الكتاب على كتب الرقائق المسندة، وكتب الأدب والأخلاق من منثورٍ ومنظوم، وأغلب مادة الكتاب من كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي رحمه الله ومختصراته، بعد تصفيتها من الغبش ومن أبواب كتابنا هذا:

العلم وفضله، علم المعاملة، العلوم المحمودة، آداب المعلم والمتعلم، آفات العلم، الطهارة وأسرارها، فضائل الصلاة، صلاة الجمعة، الزكاة وأسرارها، دقائق الآداب الباطنة في الزكاة، آداب القابض للزكاة، صدقة التطوع فضلها وآدابها، الصوم وأسراره، سنن الصوم، بيان أسرار الصوم وآدابه، الحج وأسراره، آداب القرآن

وفضائله، آداب التلاوة، الأذكار والدعوات، أوراد الليل والنهار وترتيبها، أوراد الليل، اختلاف الأوراد باختلاف الأحوال، قيام الليل وفضله، الأسباب الميسرة لقيام الليل، آداب الأكل، آداب الضيافة، آداب النكاح، آداب المعاشرة، آداب الولادة، آداب الطلاق، آداب الكسب والمعاش، الحلال والحرام، آداب الصحبة ومعاشرة الخلق، صفات الصاحب، حقوق الإخوان، حقوق المسلم، آداب عيادة المريض، آداب تشييع الجنائز، حقوق الجار، حقوق الأقارب والأرحام، حقوق الأولاد، حقوق المملوك، العزلة والخلطة، آداب السفر، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حكم السماع، من أخلاق النبوة، أحوال القلوب، مداخل إبليس، ثبات القلوب على الخير، حسن الخلق، الطريق إلى تهذيب الأخلاق، علامات مرض القلب وصحته، شهوات النفوس، علامات حسن الخلق، تنشئة الأبناء، شهوة البطن، شهوة الفرج، آفات اللسان، الكلام فيما لا يعني، الخوض في الباطل، التقعر في الكلام، الفحش والسب، المزاح، السخرية والاستهزاء، إفشاء السر والكذب، الغيبة، النميمة، ذي اللسانين، الغضب، كظم الغيظ، الحلم، العفو، الرفق، الحقد والحسد، الدنيا، المال، الحرص والطمع، البخل، الرياء، الكبر، العجب، الغرور، التوبة، الصبر، الشكر، الرجاء، الخوف، الفقر، الزهد، التوكل، المحبة، الرضا، النية، الإخلاص، الصدق، المحاسبة والمراقبة، التفكر، الموت، القبر، جهنم، الجنة، سعة رحمة الله تعالى.

وختامًا فدونك هذه السبيكة الخالصة، والعقد المتلألئ، عسى الله أن ينفع به قارئه، وكاتبه وكل من شارك في إخراجه ونشره، اللهم اجعلنا هداة مهتدين غير ضالين ولا مضلين، واجعلنا من أهل السعادة والفوز في الدنيا والآخرة، وتوفنا على الإسلام والسنة.

وكتب

إسلام محمود دربالة

مدير مركز أبحاث ودراسات المستقبل للإسلام

موسوعة

الأخلاق والآداب

في

سؤال وجواب